اخطر مقال عن حقيقة التعذيب في الجزائر !

الجلادون

بقلم جان بول سارتر

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

صدر في الاسبوع الماضي في باريس كتاب خطير بعنوان « الاستجواب » La Question كتبه بيار اليغ Pierre Alleg وهو في سجنه بالجزائر وروى فيه فظائع التعذيب التي أخضعه لها الجلادون ليستنطقوه عن اسرار تتعلق بالثوار العرب في الجزائر . وقد احدث هذا الكتاب ضجة كبيرة في فرنسا ، وكتب الكاتب الكبير جان بول سارتر مقالا طويلا عنه ما كاد ينشر في « الاكسبريس » حتى صودرت .

وفيما يلي ترجمة مقال سارتر الذي سيؤلف فصلا من الكتاب الهام الذي تصدره دار الآداب في آخر هذا الشهر بعنوان : « عارنا .. في الجزائر » وهو مجموع ما كتبه الكاتب الفرنسي الكبير عن الاستعمار الفرنسي الفاشم في الجزائر .

في عام ١٩٤٣ في شارع لوريستن كان فرنسيون يصرخون من القلق والالم . وكانت فرنسا كلها تسمعهم انذاك ولم يكن مصير الحرب اكيدا ولم نكن نود ان نفكر في المستقبل ومع ذلك فان شيئا واحدا كان يبدو لنا مستحيلا . ان يكون باستطاعتنا ان نجعل رجالا يصرخون يوما ما بسببنا.

والمستحيل ليس كلمة فرنسية : ففي عام ١٩٥٨، يعمد في الجزائر الى التعذيب المستمر المنتظم . والكل يعلم ذلك من السيد لاكوست الى مزارعي لافيرون، ولا احد يتكلم عن ذلك، او ان اصواتا تتلاشى في السكون. لم تكن فرنسا تحت الاحتلال ابكم منها الان ، بالرغم من انها كان لها العذر في ان تحمل السلاح.

ولقد حكم علينا في الخارج : باننا لم نكف عن الانحدار . وقد بدأ ذلك منذ سنة ٣٩ ، في رأي البعض، وفي رأي الاخرين منذ سنة ٩١٨. وانه لقول مرتجل : فانا لا اؤمن بهذه السهولة في انهيار شعب. انني اؤمن بفشله وخبله . وفي اثناء الحرب عندما كانت الاذاعة الانكليزية او الصحافة السرية تتحدث عن « اورادور » كنا ننظر الى الجنود الالمان الذين كانوا يتنزهون في الشوارع نظرة بريئة وكنا نقول احيانا : انهم مع ذلك رجال يشبهوننا ، فكيف يكون باستطاعتهم ان يفعلوا ما فعلوا ؟ وكنا فخورين بانفسنا لاننا لم نكن نفهم .

واليوم نعلم انه ليس هناك شيء للفهم : لقد تم كل شيء بغفلة واستسلامات غير ملحوظة ، وعندما رفعنا رؤوسنا ، رأينا في المرآة وجها غريبا ، بغيضا : وجهنا .

ان الفرنسيين يكتشفون ، في غمرة دهشتهم ، هذه الحقيقة الهائلة : اذا لم يكن هناك ما يحمي امة ضد نفسها لا ماضيها ، ولا اماناتها ، ولا قوانينها الخاصة واذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا الى جلادين ، فذلك لان الظرف هو وحده الذي يقرر : فحسب الظروف يستطيع اي كان وفي اي وقت ، ان يصبح ضحية او جلادا .

سعداء هم اولئك الذين ماتوا من غير ان يضطروا ابدا الى التساؤل « اتراني اتكلم ، اذا هم نزعوا لي اظافري ؟ » واكثر سعادة منهم اولئك الذين لم يجبروا وهم لم يكادوا يفارقون الطفولة على ان يتساءلوا هذا السؤال الاخر : « ماذا تراني افعل ، اذا عمد اصدقائي او اخوتي في السلاح ، او رؤسائي الى انتزاع اظافر عدو امام عيني ؟ »

هؤلاء الشباب الذين يوضعون في موقف حرج ، ماذا يعرفون عن انفسهم ؟ القرارات التي يتخذونها هنا ، يحدسون انها ستبدو لهم مجردة وفارغة ، عندما يحين الوقت ، وان وضعا غير منتظر سيطرح قضيتهم كلهم من جديد ، وان عليهم ان يقرروا هناك ، وحدهم ، مصير فرنسا ومصيرهم. وها هم يذهبون واخرون يعودون وقد عرفوا عجزهم فبقي اغلبهم يحتفظون بصمت حقود . ويولد الخوف : من الاخرين، والخوف من النفس ، فيجتاح جميع الاوساط ، ولا تعود الضحية والجلاد سوى صورة واحدة : انها صورتنا . وفي الحالات القصوى ، فان الطريقة الوحيدة لرفض احد هذين الدورين هي ان نطالب بالاخر .

ان هذا الاختيار لا يُفرض – او لم يفرض حتى الان – على فرنسيي فرنسا ، ولكن عدم التحديد هذا يثقل علينا : وبسببه نحن « الجرح والسكين » فالهلع في ان نكون السكين، والخوف من ان نصبح الجرح كلاهما يتبادلان التأثير والقوة . وتستيقظ ذكريات : فمنذ خمسة عشر عاما ، كان اشجع المقاومين يخشون الالم اقل مما كانوا يخشون استسلامهم للالم . وكانوا يقولون : حين تسكت الضحية ، فانها تنقذ كل شيء ،وحين تتكلم فليس لاحد الحق في ان يحكم عليها ، حتى الذين لم يتكلموا . ولكن الضحية تتزوج جلادها ، انها امرأته ، وهكذا يغرق هذان الزوجان في ليل الحقارة . ولقد عاد ليل الحقارة ، انه يعود الى « البيار » كل ليلة وانه في فرنسا سواد قلوبنا . وبالفعل فان دعاية مهموسة تتيح لنا ان نسمع ان «جميع الناس يتكلمون». هذه هي الوان التعذيب التي يبررها الجهل الانساني . ما دام كل واحد منا خائفا بالقوة ، فالجلاد الكامن في كل منا يخطيء في ان ينزعج ، لاسيما وان عظمة فرنسا تفرض ذلك .. واصوات متناهية في النعومة تفسر لنا ذلك كل يوم.ان المواطن الصالح ينبغي ان يكون ذا ضمير صالح ، اما صاحب الضمير السيء ، فلا بد ان يكون انهزاميا .

وحالا ما ينقلب الذهول الى ياس . فاذا كان على الوطنية ان ترمينا في حضن الحقارة ، اذا لم يكن هناك اي حاجز في اي مكان لا يمنع في اية لحظة الامم ولا الانسانية كلها من ان تنصب في اللاانساني ، فلماذا نحن اذن نكلف انفسنا هذا الجهد كله لنصبح او لنظل بشرا ؟ ان اللاانساني هو حقيقتنا . ولكن اذا لم يكن اي شيء اخر صحيحا ، اذا كان لا بد من الارهاب او ان نموت من الارهاب ، فلماذا نجهد في ان نعيش وفي ان نبقى وطنيين ؟

لقد وضعوا هذه الافكار في رؤوسنا بالقوة والقسر ، وانها لافكار غامضة وخاطئة . انها تنبثق كلها من هذا المبدأ نفسه : الانسان هو لا انساني .

وانهدفهم في ذلك، هو اقناعنا بعجزنا.وان هذه الافكار تبلغ هدفها مادمنا لا ننظر اليها مواجهة . والحق.انه يجب ان يعرف في الخارج : ان سكوتنا لا يعني قبولنا . انه يأتي من الكوابيس التي يخلقونها ويغذونها ويوجهونها ولقد كنت اعرف ذلك من قبل ولكنني كنت انتظر منذ زمن بعيد دليلا قاطعا .

وهذا هو :

منذ خمسة عشر يوما تقريبا ، ظهـــر كتاب في « منشـــورات منتصف الليل » بعنوان «الاستجواب» ومؤلفه هو « هنري اليغ » الـذي ما يزال اليوم معتقلا في سجن في الجزائر ، وهو يروي ، من غير تعليقات لا جدوى منها ، وبدقة مدهشة ، «الاستنطاقات» التي تعرض لها. ولقد « اعتنى » الجلادون به كما وعدوه بذلك هم انفسهم :فاخضعوه لعذاب الماء ، تماما كما كان ذلك في ايام « البرنفيليه » Brinivilliers ولكن يضاف اليه التقنات التكنيكية التي فرضها عصرنا ، وعذاب النـار والعطش الخ.. انه كتاب لا تنصح النفوس الحساسة بقراءته . والواقع ان الطبعة الاولى ـ وهي عشرون الفا ـ قد نفدت . وبالرغم من طبعـة ثانية تمت على عجل فقد عجز الناشر عن تلبية الطلب . فان بعض المكتبات تبيع من الخمسين الى المئة نسخة يوميا .

وقد كانالذين يجرؤون على انيدلوا بشهاداتهمحتى الان هم الذينعاشوا مع اخوتهم واخوتنا : الجلادين . ولم يكونوا يعرفون من الضحايا غالبـا سوى صراخاتهم وجراحاتهم والامهم . وكانوا يصفون لنا ساديين منحنين فوق مزق من اللحم . وما الذي كان يميزنا عن هؤلاء الساديين؟ لا شيء ما دمنا نسكت : وكان غضبنا يبدو لنا صادقا . ولكن هل كنا نحتفظ به لو كنا قد عشنا هناك؟ اما كان يخلي مكانه للقرف العالمي ولاستسلام كئيب ؟

وقد كنت من جهتي اقرأ لان الواجب يحتم علي ذلك. وكنت انسـر احيانا وكنت احتقر هذه القصص التي كانت تضعنا في قفص الاتهـام من غير شفقة والتي لم تكن تترك مجالا للامل .

اما مع هذا الكتاب «الاستجواب» ، فان كل شيء يتبدل : ان « اليغ » يوفر علينا اليأس والخجل لانه ضحية ولانه قد قهر العذاب . وهذا الارتداد لا يتم من غير روح فكاهية حزينة . لقد عذبوه باسمنا ، واننـا لنسترد بسببه بعضا من فخرنا : اننا فخورون بان يكون فرنسيا . ان القراء يتجسدون فيه بشغف ، ويرافقونه حتى نهاية الالم ، ويصمدون واياه ، وحيدين وعراة . اتراهم جديرين ، اترانا جديرين بذلك حقـا وحقيقة ؟ تلك هي مسالة اخرى ، المهم الذي يعتد به ،هو ان الضحيـة تحررنا اذ تجعلنا نكتشف ، كما تكتشف هي نفسها ، اننا نستطيع ويجب ان نتحمل كل شيء .

اننا ننبهر ونسحر على هوة الانساني . ولكن يكفي رجل قاس وعنيد ومصر على ان يقوم بمهنته كانسان لينقذنا من الدوار . ان «الاستجواب» ليس لا انسانيا . انه بكل بساطة جريمة دنيئة وخليعة يرتكبها بشر .ضد بشر اخرين . وباستطاعة سواهم ومن واجبهم ان يقضوا عليهـا . ان اللاانساني لا يوجد في اي مكان ، الا في الكوابيس التي يولدها الخوف. والحق ان شجاعة ضحية هادئة وتواضعها ، وصفاءها توقظنا لنكشف عـن حقيقتنا . ان « اليغ » ينتشل التعذيب من الليل الذي يطمسه . فلنقترب لننظر اليه في وضح النهار .

ما هؤلاء الجلادون اولا ؟ اهم ساديون ؟ ام هم ملائكة غاضبون ؟ ام هم اسياد حرب ذوو اهواء مرعبة ؟ ان كان علينا ان نصدقهم ، فانهم خليطمن هذا كله . ولكن الواقع ان « اليغ » لا يصدقهم. ان ما ينتج مـن الاحاديث التي ينقلها انهم يودون ان يقنعوا انفسهم ويقنعوا الضحيـة بسيادتهم المطلقة : فهم احيانا بشر أعلون يمسكون اناسا تحت رحمتهم ،وهم احيانا اخرى رجال قساة اقوياء وكل اليهم امر ترويض اوقع البهائـم واشدهاوحشية ، واكسلها ، البهيمة الانسانية.ومن المفهوم انهم لا ينظرون اليها عن كثب : فالمهم ان يشعروا السجين بانه ليس من جنسهم : ولذلك يعرونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهزأون منه . ويمر جنود بالقرب منه ذهابا وايابا يقذفونه بسمائم وبمهدبدات بلا مبالاة يريد ان تكون هائله .

ولكن اليغ ، العاري ، المرتجف من البرد ، المربوط الى خشبة ما تزال سوداء لزجه ـ بسبب فيء قديم ، يعيد هذه الحيل كلها الى حقيقتهـا التي تدعو الى الشفقة : انها تمثيليات يلعبها حمقى : فمسرحية هي قصوة احاديثهم الفاشستية وقسمهم بان « يقضوا على الجمهوريه » ، ومسرحية هي ايضا مسعى « ضابط الجنرال م.. » هذا المسعى الذي ينتهي بهذه الكلمات : « لم يبق لكم الا ان تنتحروا » انها مهازل سمجة، جامدة يعاد تمثيلها كل ليلة مندون اقتناع امام كل سجين ثم توقف بسرعة بسبب ضيق الوقت : ذلك ان هؤلاء العمال المرعبين مثقلون بالاعمال ، وهم مرهقون لان السجناء يقفون مصطفين بالقرب من خشبة التعذيب ، ولا بد من ربطهم وحلهم ومرافقة الضحايا من غرفة تعذيب الى اخرى . وان من ينظر بعين « اليغ » الى هذه الخلية القذرة ، يدرك ان الجلادين مرهقون بالعمل كل الارهاق . وقد يحدث بالطبع ان يتظاهروا بالهدوء وان يشربوا البيرة ، وقد تراخوا فوق جسد معذب ، ثم يقفزون فجـاة على اقدامهم ويركضون في كل اتجاه فيشتمون ويزأرون من الغضب. انهم عصبيون من طراز رفيع يخضعون ضحايا كثيرة ويعتقدون انهم

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتورة

نوال السعداوي

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الارض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الاطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقا
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الاضعف

بمناسبة يوم الجزائر في البلاد الافريقية والاسيوية

يسر دار الآداب في بيروت ان تقدم الكتاب الخطير:

عارنا... في الجزائر!

بقلم الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر

وفيه يفضح الاديب الحر اساليب الاستعمار
والتعذيب والتضليل التي تستعملها السلطات
الفرنسية في الجزائر العربية الباسلة

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

احجز نسختك من الان

سيعترفون من « الرفسة الاولى » .

اما ان يكونوا خبثاء مجانين من الغضب، فهذا اكيد، ولكنهم ليسوا ساديين. انهم مستعجلون جدا ، وهذا ما ينقذهم حقا. ان كلا منهم يتماسك على قدميه من جراء السرعة المكتسبة ، فعليه ان يعدو باستمرار او ينهار .

غير انهم يحبون العمل المتقن . انهم عند اللزوم يدفعون بالضمير المهني الى درجة ارتكاب القتل . وهذا ما يثيرفي قصة « اليغ » . ان وراء هؤلاء المشرحين الشرسين او المضحكين صلابة تتجاوزهم وتتجاوز رؤساءهم انفسهم .

ولقد كان من الممكن ان يكون حظنا كبيرا لو كانت هذه الجرائم عمل قبضة من الحانقين ولكن الحقيقة هي ان التعذيب ينتج الجلادين .وبعد هذا كله ، فان هؤلاء الجنود لم يكونوا قد انخرطوا في فرقة من النخبة ليعذبوا العدو المهزوم. ويصف لنا اليغ في بضعة خطوط اولئك الذين عرفهم ، وهذا يكفي لتسجيل مراحل التغير :

هناك الجلادون الاصغر سنا ، العاجزون الذين يمتلئون باضطراب «هذا فظيع» عندما يضيء مصباحهم الكهربائي معذبا ما. ثم هناك مساعدو الجلادين الذين لم يشتركوا بعد بالعمل ، وهم يمسكون بالمساجين وينقلونهم، فبعضهم قد قسا، وبعضهم ينتظر. ولكنهم جميعا قد اخذوا في الدوامه، وليس لهم عذر قط. وهناك ذلك الاشقر من المنطقة الشمالية « ذو الوجه الودود الذى يستطيع ان يتحدث عن جلسات التعذيب التي اخضع لها « اليغ » كما لو كان يتحدث عن مباراة يذكرها ويهنأ بها من غير مشقة : كما يفعل بالنسبة لبطل من راكبي الدراجات .. .» ولقد رآه « اليغ » بعد ايام يقتل على السلم احد المسلمين ، ووجهه ينبض بالحقد والكراهية .. » وهناك يتسلون برؤية الانتفاضات التي تعرو معذبا بالكهرباء، ولكنهم لا يحتملون ان يسمعوه يصرخ . وهناك اخيرا المجانين الذين يطوفون ويدورون كورقة ميتة في دوار فورانهم وعنفهم .

وليس في هؤلاء جميعا من هو موجود بذاته ، وليس فيهم من سيبقى كما هو : انهم يمثلون لحظات تبدل لا مفرمنه . فهناك فرق واحد بين افضلهم وبين اسوأهم : فاولئك هم « زرق » وهؤلاء قدامى . وسينتهي الامر بهم جميعا الى ان يرحلوا ،واذا استمرت الحرب فسيخلفهم اخرون، شقر من الشمال ، او سمر قصار من الجنوب ، يقومون بالمهنة نفسها ويعتادون العنف نفسه والعصبية ذاتها .

وفي هذه القضية ، لا يعتد بالافراد : فان هناك حقدا تائها ، مغفلا ، حقدا جذريا في الانسان ينقض في وقت واحد على الجلادين وعلى الضحايا فينحط بهم معا ويحط بعضهم بسبب بعض . وليس العذاب الا هذا الحقد وقد اندرج في نظام وخلق لنفسه وسائله الخاصة .

وحين يقال ذلك بحياء في المجلس الوطني ، تنفجر الضجة : انكم تهينون الجيش ! » وينبغي ان نسأل مرة اولى واخيرة هؤلاء الكلاب الصغيرة : « ما دخل الجيش هنا » ؟ ان ما هو مؤكد ان التعذيب يقوم ايضا « في الجيش » وان « لجنة الوقاية » لم تخف ذلك في تقرير لها هزيل ، وبعد ذلك اهو « الجيش » الذي يعذب ؟

اية حماقة ! ايظنون المدنيين يجهلون الطرق الصالحة ؟ اذا لم تكن القضية الا هذا ، فلنمنح شرطة الجزائر ثقتنا . ثم اذا كان هناك حاجة الى رئيس جلادين ، فلقد عينه المجلس الوطني كله : ليس هو الجنرال « س » كما انه ليس الجنرال «ف» ولا الجنرال «م» الذي ذكره اليغ : بل هو السيد لاكوست صاحب السلطات المطلقة . فكل شيء يتم من خلاله وبواسطته ، سواء « بون » او في « وهران » : ان جميع الناس الذين مانوا من الالم والهول في مبني « البيار » وفي مقصورة « س » ، انما ماتوا بارادته . ولست انا الذي يقول ذلك : انهم النواب والحكومة. والواقع ان القرح يمتد ، فهو قد تجاوز البحر ، بل لقد شاع ان الاستجواب يقوم في بعض السجون المدنية في فرنسا ذاتها . ولا ادري اذا كانت الشائعة حقيقية ، ولكن لا بد ان انتشارها قد اثار السلطات العامة، بدليل ان النائب العام ، في قضية ابن صدوق قد سأل المتهم جهرا اذاكان قد عذب ، وقد كان الجواب بالطبع معروفا مسبقا .

لا ، ليس التعذيب مدنيا ولا عسكريا ولا فرنسيا على وجه التخصيص. انه وباء يكتسح العصر كله . فقد عرف الشرق والغرب جلادين : فلم يمض وقت على تعذيب « فاركاس » للهنغاريين ، ولا يخفي البولونيون ان الشرطة عندهم كانت تعمد ، قبل بوزنان ، الى الاستجواب . اما ما كان يحدث في الاتحاد السوفياتي في حياة ستالين فان تقرير خروتشيف شاهد لا يرد على ذلك ... واليوم اتى دور قبرص والجزائر . والواقع ان هتلر لم يكن الا رائدا في هذا كله .

هذا التعذيب الذي يشجب ـ بميوعة احيانا ـ ولكنه يطبق بانتظام

خلف ستار المشروعية الديمقراطية يمكن تعريفه بانه مؤسسة نصف سرية. فهل اسبابه واحدة في كل مكان ؟ عن الضيق نفسه . والحق انه لا اهمية لذلك ، فليس لنا ان نحكم على العصر . ولنكتف بان نكنس امام بابنا، ولنحاول ان نفهم ما الذي وقع لنا ، نحن الفرنسيين .

انكم تعرفون ما يقال احيانا لتبرير الجلادين : من انه لا بد من تعذيب انسان ما يمكن لاعترافاته ان توفر مئات من الارواح . وهذا نفاق واضح. فان «اليغ» لم يكن ارهابيا ، وكذلك « اودين » . وذلك انه معتقل بتهمة « تعريض امن الدولة واعادة تشكيل جمعية محلولة » .

افمن اجل انقاذ ارواح بشرية احرقوا له ثدييه وشعر عضوه التناسلي؟ لا : لقد ارادوا ان ينتزعوا منه عنوان الرفيق الذي آواه .ولو قد تكلم، لوضعوا شيوعيا اخر وراء القضبان الحديدية : هذا كل ما في الامر .

ثم انهم يعتقلون هنا وهناك بالمصادفة،ان كل مسلم « قابل للاستجواب» طوعا : الا اذا قدموا شهادة كاذبة او اتهموا انفسهم مجانا بجريمة ما تخلصا من العذاب . اما اولئك الذين يستطيعون ان يتكلموا ، فمن المعلوم انهم يصمتون . كلهم او جلهم ، فلا « اودين » ولا « اليغ » ولا « غروج » قد فتحوا افواههم . ولا شك ان جلادي «البيار » اوسع معرفة منا في هذا الصدد . وقد لاحظ احدهم بعد الاستجواب الاول « لاليغ » : « لقد كسب ليلة على كل حال ليتيح لرفاقه الوقت الكافي للانسحاب » . وقال ضابط بعد بضعة ايام : « لقد استقر في رؤوسهم منذ عشر سنوات، منذ خمس عشرة سنةانهم اذا قبض عليهم، فيجب الا يقولوا شيئا : وليس هناك ما يُعمل لنزع هذا التصميم من رؤوسهم . »

لعله لم يكن يقصد الا الشيوعيين : ولكن اراهم يظنون ان مقاتلا في جيش التحرير الوطني هو من غير هذه الطينة ؟ ان اعمال العنف هذه لا تعود الا بنتائج سيئة ، ولقد امتنع الالمان انفسهم بذلك عام ١٩٤٤ . انها تكلف ارواحا بشرية ولا توفر ارواحا اخرى .

ومع ذلك ، فان الحجة ليست مخطئة تماما : وهي على كل حال تلقي لنا ضوءا على رسالة التعذيب : ان الاستجواب الذي هو مؤسسة سريه او نصف سريه ، مربوط ارتباطا وثيقا بسرية المقاومة او المعارضة .

وفي الجزائر انتشر جيشنا في الاراضي كلها : فنحن نملك العدد والمال والاسلحة ، اما الثوار فلا يملكون شيئا الا الثقة وتأييد قسم كبير من الشعب لهم ، ولقد عرفنا ، بالرغم منا الخطوط الرئيسية لهذه الحرب الاهلية : اغتيالات في المدن ، وكمائن في الريف ، ولم نخبر جبهة التحرير الوطنية نشاطاتها ، وانما هي تفعل ما تطيق فعله ، وهذا كل ما في الامر، وان نسبة قواها الى قوانا يجبرها على ان تهاجمنا هجمات فجائية ، فعليها ان لا ترى ولا تنتظر ولا تمس اذ تضرب وتختفي خشية ان يقضي عليها . ومن هنا ينبع ضيقنا: اننا نصارع خصما سريا ، فهذه يده تلقي قنبلة في شارع ، وتلك طلقة بندقية تجرح جنديا من جنودنا في الطريق ، فاذا سارعنا لم نجد احدا . وفيما بعد ، لا بد ان يعثر على مسلمين لم يروا شيئا . ان الامور مترابطة ، ان الحرب الشعبية ، حرب الفقراء ضد الاغنياء ، تتميز بالصلة الوثيقة التي تشد بين الوحدات الثائرة وبين الشعب ، وفي الوقت نفسه يصبح هذا الفيض من البؤساء، بالنسبة للجيش النظامي والسلطات المدنية ، العدد اليومي الذي لا يعد ، وتقلق فرق الاحتلال من صمت اخرس انتجته هي نفسها ، وتدرك ان هناك ارادة للصمت لا يمكن الامساك بها ، سرا دائرا حاضرا في كل مكان ، ويشعر الاغنياء بانهم مطاردون وسط فقراء لا يتكلمون ، وتجد « قوى الامن » نفسها مرتبكة بقدرتها بالذات ، عاجزة عن مواجهة العمليات الحربية الصغيرة ، الا بالتنظيف والتكنيس وبعثات الانتقام ، وعن مواجهة الارهاب الا بالارهاب . على ان هناك شيئا خفيا : يجب الاستجواب والاستنطاق في كل مكان .

ان التعذيب غضب لا طائل تحته ولده الخوف : يراد انتزاع سر الجميع من حلق يصعد الصرخات ويقيء الدم . وانه لعنف لا جدوى منه : فسواء تكلمت الضحية او ماتت تحت الضرب ، فان السر الذي لا حصر لعدده موجود في مكان اخر ، دائما وابدا ، بعيد عن المتناول .. وهنا ينقلب الجلاد الى سيزيف : فان عليه اذا طبق الاستجواب ان يبدأ دائما من جديد .

ولكن حتى هذا الصمت وهذا الخوف وهذه الاخطار التي لا ترى فقط وهي حاضرة ابدا لا يمكن ان تشرح سبب ضراوة الجلادين وارادتهم في ان يسوقوا ضحاياهم الى الحقارة ومن ثم الى الحقد البشري اذا استولى عليهم على غير رضاهم .

ان يتقاتل الناس : تلك هي القاعدة : فهم قد تحاربوا ابدا من اجل مصالح جماعية او فردية ، اما في التعذيب ، هذه المباراة الغريبة ، فانما يقيس الجلاد نفسه بالضحية من اجل صفة الانسان ، وكل شيء يحدث كما لو انهما لا ينتميان معا الى الجنس البشري .

ان هدف الاستجواب لا يقتصر على اجبار الضحية على الكلام وعلى الخيانة : بل على الضحية ان تشير الى نفسها بالصراخ والخضوع على انها بهيمة بشرية . في عيون الجميع وفي عينيها بالذات . يجب على خيانتها ان تحطمها وتخلص المجتمع منها الى الابد . وان من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط قسره على الكلام ، وانما هو قد دفع الى الابد بصفة كونه : اقل من انسان .

ولا شك في ان تعميم هذا الشرط صفة من صفات هذا العصر . ذلك ان الانسان بحاجة الى ان يُصنع ، ان ارادته في ان يكون حرا لم تكن في اي وقت اقوى منها الان ولا اعمق وعيا ، وكذلك الاضطهاد لم يكن اعنف ولا افتك سلاحا .

والمفارقات في الجزائر غير قابلة للتخفيف : ان كلا من الفريقين المتصارعين يطالب بطرد الفريق الاخر بصورة جذرية . ولقد سلبنا المسلمين كل شيء ثم حرمنا عليهم كل شيء ، حتى استعمال لغتهم الخاصة . وقد اوضح « ميمي » كيف ان الاستعمار يتحقق بالغاء المستعمرين (بفتح الميم) انهم لا يملكون بعد شيئا ، وليسوا هم بعد احدا . لقد صفينا حضارتهم فيما منعنا عنهم حضارتنا . كانوا قد طلبوا الانضمام فقلنا لهم لا ونحن نتساءل : باية معجزة ترانا نستبقي الاستغلال الاستعماري اذا كان المستعمرون يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها المستعمرون ؟ ان النظام المتبع كان يدفعهم ، وهم البؤساء الجهلة المحتاجون للغذاء ، الى تخوم الصحراء ، والى آخر حدود الانساني دفعا لا شفقة فيه ، وقد كان مستوى حياتهم ، بسبب ازدياد المواليد ، ينحدر من سنة الى سنة. وحين دفعهم اليأس الى الثورة ، قلنا ان عليهم ، هؤلاء اللابشر ، ان يموتوا او ان يوكدوا انسانيتهم ضدنا : فاذا هم يطرحون قيمنا وثقافتنا وتفوقنا المزعوم ، واستوى عندهم ان يطالبوا بصفة الانسان وان يرفضوا الجنسية الفرنسية .

ولم يقتصر هذا التمرد على تحدي سلطة المستعمرين ، وانما هم قد

شعروا بانهم مهددون بوجودهم ذاته . ان هناك حقيقتين متكاملتين وغير منفصلتين في نظر معظم الاوروبيين القاطنين في الجزائر : ان المستعمرين هم ذوو حق الهي ، والسكان الاصليون هم دون البشر . وتلك هي ترجمة اسطورية لوافع حقيقي ، ما دام غنى الاولين يرتكز على بؤس الاخرين . وهكذا يجعل الاستغلال المستغل تبعا للمستغل . ثم ان هذه التبعية ، على صعيد آخر ، هي في صميم النزعة العرقية ، وذلك هو تناقضها العميق وشرها المرير : ان الاوروبي الجزائري يرى ان كونه انسانا يعني قبل كل شيء انه متفوق على المسلم .

فاذا حدث ان وكد المسلم نفسه كانسان يساوي المستعمر، فماذا تراه يكون الموقف ؟ ان المستعمر يشعر انه قد مس في كيانه ، وانه قد انتقص من قدره وهبطت قيمته ، وهو لا يرى في دخول هؤلاء الى العالم البشري نتائج اقتصادية فحسب ، بل ان هذا الحادث يزري به لانه يعلن لـه سقوطه الشخصي . وقد يتفق له ، وهو في غضبه ، ان يحلم بالاجتثاث ولكن ذلك لا يعدو ان يكون حلما شعريا محضا . انه يعلم ذلك ، وهو يعرف تبعية الاخر له ، فما عساه يفعل من غير عمال من السكان الاصليين ، من غير ايد عاملة رخيصة ، من غير بطالة مستديمة تتيح له ان يفرض الرواتب التي يشاء ؟ وبعد ذلك ، اذا كان المسلمون حقا من البشر ، فقد ضاع كل شيء ، ولم يبق ثمة حاجة حتى الى اجتثاثهم . كلا ، بل ان ما يتطلب السرعة ، اذا كان الاوان لم يفت بعد ،هو ان يذلوا ، وان تنتزع العزة من قلوبهم وان يدفعوا الى صفوف البهيمة . سيترك للاجساد ان تعيش ، ولكن لا بد من قتل النفوس . وتستولي عليهم حينئذ كلمات : الترويض والتقويم والعقاب : فليس في الجزائر مكان كاف لجنسين بشريين اثنين ، ولا بد من الاختيار بينهما .

وانا لا ادعي بالطبع ان الاوروبيين في الجزائر هم الذين اخترعوا التعذيب حتى ولا انهم حشوا السلطات المدنية والعسكرية على تطبيقه ، بل على العكس : لقد فرض التعذيب نفسه تلقائيا ، وقد اصبح « روتينا » قبل ان يلاحظ الناس ذلك . غير ان الحقد البشري الذي يتمثل فيه انما يعبر عن العرقية ، لانه انما يراد تهديم الانسان نفسه بكل صفاته الانسانية ، الشجاعة والارادة والذكاء والامانة ـ الصفات نفسها التي يطالب بها المستعمر . ولكن اذا استخف الغضب بالاوروبي الى درجة ان يحتقر صورته نفسها ، فذلك لان عربيا قد عكس هذه الصورة .

وهكذا يبدو من هذا الزوج الذي لا ينفصل ، المستعمر والمستعمَر الجلاد والضحية ، ان الثاني ليس الا تبعا للاول . مما لا ريب فيه ان الجلادين ليسوا مستعمرين ، ولا المستعمرين جلادين . فان هؤلاء هم على الغالب شبان يأتون من فرنسا وقد عاشوا عشرين عاما من حياتهم من غير ان يهتموا بالمسألة الجزائرية . ولكن الحقد كان هناك حقلا للقوى المغنطيسية ، فجذبهم واخترقهم واستعبدهم .

ان هذا كله انما يوحي به ما في قضية « اليغ » من بصيرة هادئة واعية . فاذا لم يكن يحمل شيئا اخر ، فينبغي ان نحفظ له عرفانا عميقا بالجميل . غير انه قد اتى باكثر من ذلك ، فهو حين اخاف جلاديه ، انما نصر انسانية الضحايا والمستعمرين ضد العنف المجنون الذي ينطوي عليه بعض العسكريين ، وضد عنصرية المستعمرين . وارجو الا تعني كلمة « ضحايا » هذه نوعا لا افهمه من الانسانية الباكية : ان « اليغ » وسط هؤلاء القواد الصغار الفخورين بشبابهم وبقوتهم وبعددهم هو الوحيد الصامد ، الوحيد القوي حقا . وبوسعنا نحن ان نقول انه دفع اغلى ثمن من اجل حق بسيط ، من اجل ان يظل انسانا بين البشر . ولكنه لم يفكر بذلك . ولهذا نهتز بالغ الاهتزاز لهذه العبارة التي وردت في نهاية فصل من فصول كتابه :

« واحسستني فجأة فخورا وفرحا بانني لم استسلم ، وكنت على يقين من انني سأقاوم مرة اخرى اذا اعادوا الكرة ، وسأجالد حتى النهاية ، وانني لن اسهل لهم مهمتهم بان اعمد الى الانتحار . »

اجل انه انسان صلب جلود انتهى به الامر الى بث الخوف في نفوس ملائكة الغضب .

ان شهادة « اليغ » تبدد اوهامنا : لا ، انه لا يكفي ان نعاقب بعض الافراد او نعيد تربيتهم ، ولن نستطيع انسنة حرب الجزائر ، فقد قام فيها التعذيب تلقائيا ، وادت اليه الظروف وعمقته النعرات العنصرية .. واذا كنا نود ان نضع حدا لهذه الاعمال الوحشية القذرة الكئيبة ، وان ننقذ فرنسا من العار وننقذ الجزائريين من الجحيم ، فليس امامنا الا وسيلة واحدة : ان نفتح المفاوضات ونعقد السلام .

جان بول سارتر

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

صدرت حديثاً

المجموعة الكاملة

للشاعر خليل حاوي

1 المجلد الأول 2 من جحيم الكوميديا

3 الرعد الجريح

اسم جديد هو اليوم مبدأ مرحلة جديدة حاسمة... ان الكثيرين من الشباب الجدد اليوم يعيشون مواهبهم من خلال شعره وطريقته.

علي الجندي

خليل حاوي هو الشاعر الوحيد الذي لفت نظري في العالم العربي. انه شاعر له "قد وحد"... وهذا شيء نادر الوجود عند شعراء الغرب والشرق المعاصر.

بيتر باخمان

أبرع الشعراء المحدثين في ابراز وظيفة الرموز، وأحرصهم على البناء المتكامل. الشعر عنده مواقف استشهاد يفضي احدها الى الآخر.

احسان عباس

ويعود الشاعر الى ممارسة وظيفته الاصلية الاولى.. حين يكتشف بحدسه حاضر الحضارة ومستقبلها، ويعود مجددا نبي القوم وكاهنهم وساحرهم وقائدهم السياسي والاجتماعي.

ريتا عوض

خليل حاوي.. خالق القصيدة الطويلة في الشعر الحديث.. عشرته صعبة على البعض لانه لا يجامل.

اديب صعب

يتحول "شعر خليل حاوي" الى كيان موضوعي مستقل عن صاحبه... هذا الكيان هو أرقى مراحل الخلق الفني.

غالي شكري

من منشورات دار العودة - بيروت